الوجود المسيحي في العالم العربي
أزمـــة معـــنى و دور

بقلم: سركيس أبو زيد*

مؤخّراً، تعدّدت الأصوات والمنابر التي تُعلن عن اهتمامها بالوجود المسيحي في العالم العربي، ونُشرت إحصاءات عن تزايد هجرة المسيحيّين، وبرزت مخاوف من اضمحلال حضورهم. وقد خصّص الفاتيكان «سينودس» عن الوجود المسيحي في الشرق الأوسط، وأُسّست جمعيات ومراكز أبحاث، وعُقدت محاضرات وندوات وخلوات، وبرز حِراك سياسي لمعالجة هذه المُعضلة، فتعدّدت وُجهات النظر التحليليّة لمقاربة الأسباب والآفاق.

هل فعلاً أنّ المسيحية في خطرٍ يواجهُها في مهدها؟ وهل يستطيع المسيحيّون الشرقيّون إعطاء معنى ودور ورسالة لوجودهم في مجتمعٍ طابعُه الغالب عروبيّ أو إسلاميّ؟

هذه أسئلة تُفتّش عن استجابة وأجوبة، خاصّة بعدما بات الوجود المسيحي في العالم العربي جزءاً أساسياً من أزمة العروبة والعولمة والتحديّات الأُمميّة والوطنية.

تحدّيات الوجود المسيحي في الشرق

التحدّي الأول والأساسيّ الذي يواجه الوجود المسيحي في العالم العربي، هو تداعيات مقولة صراع الحضارات كنظرية أُحادية لفهم تاريخ البشرية وتفسيره.

هذه المقولة تختصر الصراع في منطقتنا بأنه بين الحضارة الإسلامية من جهة والحضارة المسيحية – اليهودية من جهة أخرى. وتُشجّع الصهيونية والمسيحيّون الجُدد في الولايات المتحدة هذه النظرية، وتختبىء في ظلّها «إسرائيل» للإستقواء بالغرب المسيحي عموماً، بغية تحريض المسيحيّين على الإسلام. ولِغَرَض ضبط إيقاعها وإظهار صوابيّتها، تعمل القوى المؤيّدة لها على إلغاء وجود المسيحيين الشرقيّين من العالم العربي والإسلامي. لذلك، حيث يوجد احتلال «إسرائيلي» وأميركي نشهد عمليّات تهجير للمسيحيّين، من خلال التضييق عليهم، وتشجيع سفرهم إلى دول أوروبيّة وأميركيّة. وهذا ما يحصل فعليّاً في فلسطين والعراق خصوصاً، وفي سوريا ولبنان ومصر عموماً. ولأنّ المسيحية الشرقية هي شاهد فعليّ على التعدديّة والحياة المشتركة في المشرق العربي، بات الوجودُ المسيحي في النطاق الإنطاكي النقيضَ الوجوديّ لنظرية صراع الحضارات، التي هي مَظهرٌ للصّراع بين الأديان.

التحدّي الثاني الذي يواجه الحضور المسيحي في الشرق هو تنامي الحركات التكفيريّة الإسلاميّة، التي تسعى إلى إلغاء الآخر ـ المسيحي والإسلامي ـ الذي لا يشاركها الرأي والتفسير، وتعمل على طرده من دار الإسلام، بالإرهاب والقتل. وتنطلق هذه الحركات من دمج الإستعمار الغربي بالعقيدة المسيحية، وتُكفّر كلّ من لا يوافقها النظرة، إنْ كان مسيحياً أم مسلماً.

هذا التحدّي لا يواجه المسيحيّين الشرقيّين وحدهم، بل هو تحدٍّ مصيري للإسلام المعتدل أو الليبرالي، كما هو تحدٍّ للعروبة نفسها التي تواجه مأزقاً بين مدارسها، حيث يربط بعضها العروبة بالإسلام. بينما تحاول مدارس أخرى التمييز بين العروبة والإسلام، وتطرح مفهوماً جديداً للعروبة الحضارية التي تعتبر المسيحية والإسلام جزءاً من حضارتها، و تعمل على قيام دولة عربية مدنيّة ديموقراطية.

أمّا التحدّي الثالث فيتمثّل في انزلاق بعض الفئات المسيحية الشرقية إلى منطق انعزالي يرتكز على وهْم قيام دولة أو كانتون للمسيحيين، كمخرج وحيد لحمايتهم من البحر الإسلامي، ممّا يؤدي إلى تحالفٍ بين هذه الجماعات والمخطّطات الغربيّة عموماً، وهي الرامية إلى تفكيك المنطقة ضمن مشروع أميركي – صهيوني للشرق الأوسط الجديد، قائم على أساس دويلات طائفية، الغرضُ منها استغلال خوف المَسيحيين من جهة، وتبرير قيام «إسرائيل» كدولة يهودية من جهة أخرى، ممّا يحفظ أمنها على حساب الآخرين. وقد أدّى هذا المنطق إلى انقسام المسيحيّين في ما بينهم، وإلى تشرذُمِهم، وتفتيت وجودهم، وتعرُّضِهم إلى حملة من المضايقات، وصولاً إلى إحباطهم وتسهيل هجرتهم لأسباب اقتصادية أو لظروف التمييز والقهر.

الإستجابة للتحدّيات

تطرح هذه التحدّيات الأساسية، وغيرها من التحدّيات الثانوية، على الوجود المسيحي في العالم العربي، سؤالاً

* إعلامي وكاتب لبناني

أساسياً : ما هي الإستجابة؟

بداية، لا بدّ من قراءة تاريخية نقدية لفهم وتجاوز مسألتين أساسيتين:

– **المسألة الأولى:** عقدة حروب الفرنج التي سُمّيت غربياً الحروب الصليبية. وهي في الواقع حملات أوروبية لخدمة المصالح القومية الأجنبية، اتّخذت من الدين غطاءً ومبرّراً. واضطهدت فعلياً وعملياً المسيحيّة الشرقية، وحاولت إلغاء خصوصيّتها وهويّتها من أجل المسكونيّة. وهي اسم آخر للغَرْبَنة، علماً أنّ المسيحية أساساً هي بنت الشرق، من هنا أصلُها وجذورها، وهنا يتحدّد مصيرها وجوهرها.

– **المسألة الثانية:** عُقدة حِلف الأقليّات، وهي نشأت مع المسألة الشرقية التي اخترعها الإستعمار الأوروبي، من أجل تبرير التدخّل في شؤون الرجل المريض أي السلطنة العثمانية وتفكيكها، وربط معاناة الأقليّات بمصالحها القوميّة. ولقد ورثت «إسرائيل» هذا النهج وعملت على قيام حلف الأقليّات من خلال اتصالات بقيادات معيّنة، وإيهامها بجدوى هذا الحلف. وسرعان ما تبين أن «إسرائيل» تسعى إلى المصالحة، وعقدِ اتفاقيات مع الأكثرية على حساب الأقليّات التي استعملتها للضغط، عبر التغرير بمشاعرها. ولعلّ مصير «جيش لحد» هو أبرزها، إذ عبّر عنه العميل أنطوان لحد بقوله: «خدمنا إسرائيل 25 سنة فتخلّت عنا خلال 25 ساعة».

خيارات المسيحيّين الشرقيّين

في العودة إلى التاريخ، يتبيّن لنا أنه عندما اختارت نخبة مسيحية أن تكون رائدة في النهضة والحداثة حجزت موقعاً متقدّماً، وكان لها وجود حضاري متميّز. وعندما اختارت الحلّ العسكري تحوّلت ميليشيا ألغت بعضَها بعضاً، فكانت نكبةً على المسيحيّين وعلى المجتمع ككل.

ومن المهمّ قوله أنّه لا يُمكن موضوعياً الكلام عن وجود مسيحي في العالم العربي بالجملة، من دون درس الظروف الخاصة للمسيحيّين في كلّ دولة عربية. وهذه الظروف نستعرضها كالتالي:

أ– في لبنان: لم يُحسن الحكّام الموارنة استعمال الإمتيازات المسيحية، لبناء دولة ديموقراطية عادلة وقوية، فآل الحكم إلى الفشل، وسبّب انتقاصاً من صلاحيات رئاسة الجمهورية، وتعثّر بناء الدولة.

ب– في فلسطين: ألغى الإحتلال «الإسرائيلي» الوجود المسيحي الذي كان له دورٌ طليعيّ في الثورة الفلسطينية.

ج– في العراق: كان للمسيحيّين حضور متميّز حتّى في ظلّ النظام البعثي السابق، بينما هم يواجهون راهناً مصيراً صعباً في ظل الإحتلال الأميركي.

د– في سوريا: الحضور المسيحي يشارك في السلطة، ولو بشكلٍ نسبيّ، نتيجة وجود نظام يسعى إلى أن يكون علمانياً.

هـ– في مصر: أزمة طائفية متفاقمة بعد سقوط الناصرية وتوقيع معاهدة سلام مع «إسرائيل».

و– أما في الدول العربية الأخرى، فيتباين وضع المسيحيّين وفق طبيعة الأنظمة وفاعلية الحركات التكفيريّة.

في الخلاصة، على المسيحيين أن يتمسّكوا بهويّتهم الأنطاكيّة المشرقيّة، وأن يكونوا شهوداً للحق، كما عبّر مؤخّراً مسيحيّو فلسطين في وثيقة «وقفة حق»، تعبيراً عن لاهوت التحرّر والمقاومة ضد الظلم والإستبداد «الإسرائيلي».

لقد سبق و دعا «السينودس من أجل لبنان»، المسيحيّين إلى التضامن مع القضايا العربية المحقّة، لأنهم جزء أساسي من حضارة العالم العربي ومصيره، لكنّ الترجمة العمليّة لهذه الدعوة ما زالت متعثّرة. لذا، على المسيحيين التمسّك بهويّتهم المشرقية، والتزام بناء دولة المواطنة والعدالة والمساواة والديموقراطية، لأنها الضامن الوحيد لوجودهم.

وبهذا المعنى، للمسيحية المشرقيّة دور ورسالة مسكونيّة، شرط أن يعي المسيحيّون تاريخهم وجوهرَ وجودِهم في هذا المشرق، لأنهم الأقرب إلى المسيح، وهم حَمَلَةُ رسالة المحبة والتسامح والخلاص، وهم الأقدر على تقديم نموذج الحياة المشتركة لخلاص البشريّة من التصادم والتناقض والحروب والدمار، بعدما أخفقت الحضارة الغربيّة في إعطاء قيمة للإنسان وللقِيم الروحيّة.

المسيحيون الشرقيون مدعوّون إلى تقديم نموذج جديد للحضارة الإنسانية، خصوصاً بعدما تشيّأت الحضارة الغربيّة التي تدّعي المسيحية، وقضت على البُعد الروحي للإنسان.

هم مدعوّون إلى أن يكونوا رُسلَ حضارة كونيّة جديدة قائمة على مُرتكزَيْن:

– التعدّدية الإجتماعيّة، أي الإعتراف بحقّ الإختلاف ضمن الإئتلاف والتضامن، من أجل القضاء على الفقر والظلم والجهل والإستبداد. لذلك هم شهود على هذه التعدّدية المتميّزة حيث يتمّ الإلتقاء بين المسيحيّة والإسلام.

– أنسنة الحضارة عبر المزاوَجة بين البُعدين المادّي والروحاني. فللإنسان مصالح وحاجات ماديّة يجب توفيرها بشكل طبيعي وسليم من دون استغلال أو حرمان أو إفراط. وللإنسان أيضاً بُعد روحاني ذو تطلّعات عقلانية جمالية نفسية ومُثُل عليا، وقِيم ومناقب، من دونها لا قيمة لأي حضارة أو ثقافة.

فهل نستجيب لهذه التحدّيات، ونكون على مستوى الرسالة والدور الذي دعانا إليه المسيح، ونحن الأقرب منه وإليه؟